مات ليلة أمس

مجد في محروس

ما أن ولجَ بقدميه داخل شقته، بعد منتصف الليل على غير عادته، وتعلّقت عيناه بعيني زوجته التي تنتظر عودته - وهى في كامل زينتها حيث ارتدت قميص النوم الأحمر الناري الذي يعشقه زوجها - حتى هربَ بعينيه بعيدًا عن عينيها في توتر، وهو يهمهم بحروف متعثرةٍ، وقد أولاها ظهره :

- مساء الخير.

صمتت الزوجة للحظات – مرت عليه كالدهر – وهى تتطلع إليه من الخلف، وردت قائلةً في لهجة ، بدت غريبة في الوقع على أذنيه :

- مساء النور.

كم تمنى في تلك اللحظة أن يسرع الخُطى نحو حجرته؛ لتضمه حوائطها ولو مؤقتًا بعيدًا عن عينيها اللتين لا يستطيع مواجهتهما، لكن عيناه وقعتا على مائدة الطعام التي حفلت بكل ما تشتهيه نفسه من أطعمه ما زال بخارها يتصاعد، ويعبق أجواء الشقة .. استدار في بطء، وهو يخلع سترته، ويعلقها على مسند مقعده، قبل أن يلقي بجسده فوقه، وهتف قائلًا في همس بصوت حاول قدر استطاعته أن يخرج طبيعيًا:

- كان يومًا شاقًا.

هزّت الزوجة رأسها، وهى ما زالت واقفة مكانها، وقد عقدت ذراعيها

أمام صدرها، تتطلع إليه في صمتٍ مميت، ثم تحركت في جمود، وسحبت شالًا لها مِن فوق أحد المقاعد، أخفتْ تحته قميصها الأحمر الذي فقدَ بريقه، ثم ألقت بجسدها على مقعدها المقابل لمقعده..

ومن ثمّ مدت يدها، وتناولت ملعقتها، ووجَّهتها نحو طبق الأرز، في اللحظة التي كانت فيها أعماقها تصرخ بضراوة :

- اليوم فعلها وخانني..

نعم.. نعم خانني ..

أنا على يقين ..

أرى صورتها في عينيه ..

أشمُ رائحتها في صوته ..

أنا أعرفُ نفسي جيدًا ..

أثقُ في فراستي ..

لستُ بالمرأة التي تحتاجُ لأن ترى شعرةً غريبة على كتفِ زوجِها، أو تشم بين طيات ملابسه رائحة عطرٍ لامرأة أخرى .

ارتعشت الملعقة بين أصابعه، وهو يرمقها بطرف عينيه، فتساقطت قطرات من المرق على بنطاله، فتأوه في صمت، وهو يلعن في سرِّه صديقه، الذي زيّن له طريق الخيانة..

أخذ بيده كطفل تائه بعد أن فقدَ أمه، وألقاه في بحار من الرذيلة العطنة ..

أي شيطانٍ هذا الذي غرَّر به، ودفعه لطريق الخطيئة؟!

ماذا يقول لها الآن؟!

هل يعترف لها؟

هل يرمي برأسه فوق صدرها الذي طالما تحمَّله في كل ضائقةٍ ألمّت به؟

هل يطلب منها الصفح والغفران؟

ولكن ..

هل من الممكن أن تسامحه، وتغفر له خطيئته الأولى والأخيرة في حقها؟

ما لها تنظر لي هكذا بطرف عينيها؟

أشعرُ، وكأنَّها أحست.

ابتسامة مريرة علت شفتيها، وهي تطالعه يقطع قطعة من الخبز، ويضعها في طبق المرق بدلًا من طبق الخضار، في حين كانت أعماقها تزأر بداخلها كأسدٍ جريح:

- ما الذي كان ينقصه ليفعل ما فعل؟

أبعد ربع قرن من الزواج يخونني؟ !

تحمّلت معه الكثير والكثير حتى وصل لما هو فيه ..

تنازلت -من أجله-عن سماع أجمل كلمة تتمنى سماعها كل امرأة حين أخبرنا الأطباء

بأمر عقمه ..

هل هذا جزاء الإحسان؟

هل هذا ما أمرنا به الدين حين قال "وعاشروهنّ بالمعروف"؟

هل .. هل ..

رباه !!

رأسي يكاد ينفجر ..

لا أطيق النظر لوجهه ..

لا أريد أن أطالع طابع الحسن أسفل ذقنه، الذي طالما عشقتُ النظر إليه، وتحسستُه بأناملي مداعبةً إياه و ..

فاقت من شرودها، وهي تلمحه ينهض قائلًا بصوت متحشرج :

- طعامك شهيٌّ كعادتك.. ولكني في حاجة لبعض الراحة .

استدار متجهًا نحو حجرته في خطواتٍ متثاقلة، وقبل أن يبلغَ بابها التفت..

تطلع إليها في نظرة طويلة ..

هتفت عيناه في رجاء :

- سامحيني يا رفيقة الدرب.

وانحدرت من عينيه دمعة وحيدة ساخنة غابت بين تجاعيد وجهه، وهو يستدير ليواصل طريقه نحو حجرته، التي ترك بابها مفتوحًا..

تحركت الزوجة من مكانها، بخطوات جامدة نحو باب حجرته، وأغلقت بابها عليه، ثم اتجهت نحو الأريكة المتواجدة بصالة شقتها، وفردت جسدها عليها..

وضعت ذراعيها تحت رأسِها ..

عيناها معلقتان بالسقف ..

أعماقها تصرخ وتصرخ بأسئلة عديدة، وما من جواب ..

فتحت عينيها، وتطلعت لساعة الحائط التي تعدت العاشرة صباحًا..

تطلعت لباب حجرته ..

ما زال مغلقًا كما هو ..

نهضت في إرهاق من فوق أريكتها، واتجهت بنفس خطواتها الجامدة نحو باب الحجرة ودفعته ..

ما زال في فراشه يغط في نوم عميق ..

اقتربت منه لتوقظه ..

ما هذا؟!

أنفاسه تبدو ساكنة ..

تحسست نبض يده ..

لا أثر للحياة !

هتفت بأعماقها في جمود :

- مات.

ألقت عليه نظرةً أخيرة خالية تمامًا من أيةِ مشاعرَ، ثم عادت أدراجها بنفس خطواتها الجامدة للصالة ، رفعت سماعة الهاتف، وهتفت عبرَه في جمودٍ :

- أبي.. لقد مات محمود .. مات ليلة أمس .

تمت بحمد الله.